ظاهرة الاغتراب وفضاء السؤال في شعر الشاعر الكويتي محمد الفايز
مذكرات بحار أنموذجا

إعداد
د. ناصر محمد العجمي
مدرس بجامعة الكويت

المستخلص:
وقف البحث على ثنائية الاغتراب والسؤال في شعر محمد الفايز، وتناول مصطلح الاغتراب وفضاء السؤال، ومحمد الفايز شاعر كويتي من أعلام الشعر العربي في الكويت والوطن العربي، وكان من أبرز شعره ديوان (مذكرات بحار) الذي اتخذه البحث أنموذجا. وقد صور فيها معاناة الأجيال السابقة من الكويتيين في سبيل التغلب على شظف العيش ومصاعب الحياة عندما كانوا يقضون الشهور الطويلة على مياه الخليج والبحار الأخرى ليعودوا بعدها بالأمل.
وقد تناول البحث تجليات ذات الشاعر بين الاغتراب والحنين، وأثر المتغيرات الاجتماعية التي مر بها الشاعر في العيش بين الغربة والاغتراب، فضلا عن دلالات اللقاء والوداع والضياع، حيث كانت تيمة الضياع بارزة في مذكراته، وقد أبحر في تعرية ضياع الإنسان، وتعرية العالم المحيط به؛ ذلك العالم الذي تهاوت فيه القيم على يد تجار البشر، في بيان العلاقة الجدلية بين المتنعمين من البشر، وبين المسحوقين الضائعين. وكان الحزن من أبرز المضامين الشعرية التي عبر عنها الشاعر، فقد عكس بشعره انفعالات النفس ومدى ما يدور في فلكها الحزين.
وعرج البحث على الذات المغتربة وفضاء السؤال، وبين أن السؤال الشعري من أهم عوامل إنتاج النص الشعري المكثف؛ حيث مثل السؤال ظاهرة من الظواهر الأسلوبية المميزة في كينونة نصه الشعري، وقد آمن الشاعر بالسؤال بوصفه باعثا للحياة في خطابه الشعري، وقد شحن قصائده بالحركة والطاقة؛ ليعرض مغامرة الدخول إلى نفس المتلقي عبر البحث عن الإجابات.
وقد أثبت البحث أن محمد الفايز من أهم الشعراء المعاصرين، وهذه الدراسة بداية لإلقاء الضوء على شاعريته، من خلال إظهار جانب مشرق من جوانبها. وقد مثل ديوان (مذكرات بحار) الذات المغتربة خير تمثيل، حيث كان الاغتراب معادلا موضوعيا لتعقد الحياة، وتمثل الذات الشاعرة للذات الجمعية التي تنقل أحاسيس الناس ومشاعرهم ومعاناتهم، وقد نشأت في الشعر العربي في تلك الآونة ظاهرة الاغتراب عند عدد من الشعراء، فعاشوا اغترابا روحيا ونفسيا واجتماعيا واقتصاديا، وعبروا عن الانتكاسة الحضارية وما أفرزته في المجتمعات العربية، وانعكس ذلك في شعرهم.

الكلمات الإفتتاحية: فضاء السؤال ، الاغتراب ، الاضطرابات.

التمهيد

ترتبط ثنائية الاغتراب والسؤال ارتباطا عضويا، ولا يمكن للبحث فك ارتباطهما، فأما الاغتراب فهو:" شعور الفرد بالعجز عن التلاؤم، والإخفاق وعدم التكيف مع المحيط" [١]، وقد ذهب الباحثون مذاهب شتى في تعريفهم المفهوم الاغتراب وتحديد أنواعه وأنماطه السلوكية. وكان من بين ما ذهبوا إليه أنه ظاهرة إنسانية توجد في مختلف أنماط الحياة الاجتماعية وفي كل الثقافات، وهو من المفاهيم الفكرية الحديثة، وجذوره ليست وليدة الحياة المعاصرة، فهي تمتد إلى العصور القديمة، ولها مظاهرها في الآداب العالمية، ومنها الأدب العربي الذي عرف أنواعا من الاغتراب لدى كثير من أعلامه، " وكل الميادين أو المضامين التي ستتضمن معالجة صريحة المعنى الاغتراب تتفق على أن اغتراب الإنسان بوصفه فردا يتمثل بالواقع المفروض عليه، أو الاضطرابات التي تصيبه نتيجة للظروف الطارئة على حياته؛ مما يجعله كائنا غريبا عن ذاته أو عن مجتمعه في أنه يعيش وجودا زائفا سقط فيه رغما عنه، فتسبب ذلك في شعوره بعدم انتمائه إلى هذا الوجود، بل غدت حالة الاغتراب في هذا التيار ظاهرة إنسانية توجد في كل زمان ومكان"[٢]، ويشير مصطلح الاغتراب في اللغات الأخرى إلى " حالة تحول الكائن إلى خارج ذاته، أو تجاوز ذاته، وقد استخدمت كلمة الاغتراب في العلاقات الإنسانية لتدل على الإحساس الذاتي بالغربة، أو الانسلاخ سواء عن الذات أم عن الآخرين، أما الكلمة العربية (الغربة) فتدل على معنى النوى والبعد، فالغريب هو البعيد عن وطنه" [٣].

وأما علاقة السؤال بالشعر فهي علاقة " تتسم بالديمومة والاستمرار، فقد ضمنه الشعر مضماره الرحب وفضاءه الشاسع عبر الإفادة من تقاناته وتشكيلاته وألوانه وصيغه، ومع ولادة الشعر ولد السؤال واحدا من أهم تيماته الفكرية والدلالية والفلسفية، فمن أهم قضايا الشعر صنع السؤال: سؤال في الوجود، وسؤال في العدم، أو في الحضور والغياب؛ لذا فإن الشاعر كله علامة استفهام كبيرة تثير ألأخر وتحرضه على البحث عن جواب أو البحث عن سؤال أيضا[٤]".

والسؤال الذي يطرحه الشعر مختلف عن الاستفهام، وهو أعم وأشمل منه؛ لأنه يفتح الشعر على آفاق الدلالات والإيحاءات، ولذلك يقول العسكري:" الاستفهام طلب الفهم لشيء تجهله أو تشك فيه، والسؤال يسأل عما يعلم، وعما لا يعلم؛ فهو طلب الخبر وطلب الأمر والنهي[٥].

- **محمد الفايز في سطور:**

هو محمد فايز العلي، ولد سنة ١٩٣٨م، وتوفي سنة ١٩٩١م، وهو من أعلام الشعر العربي في الكويت والوطن العربي، وهو شاعر مبدع امتلك ناصية الكلمة الشعرية مبكرا؛ فكتب القصيدة العمودية وقصيدة التفعيلة، وصدر له اثنا عشر ديوانا شعريا مطبوعا هي : مذكرات بحار، والنور من الداخل، والطين والشمس، وروسم للنغم المفكر، وبقايا الألواح، وذاكرة الآفاق،

---

[١] الاغتراب، ريتشار شاخت، تحقيق كامل يوسف حين، ط١، ١٩٩٦:٦

[٢] الاغتراب في شعر نازك الملائكة، د. ساجدة عبد الكريم التميمي، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٧م: ٣٣-٣٤

[٣] الحنين والغربة في الشعر العربي، د. يحيى الجبوري، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م: ١٦

[٤] السؤال فضاء شعريا: ديوان حرائق التكوين أنموذجا، على الإمارة، جريدة الأديب، ع١٧٨: ٢٠

[٥] الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، د. ت: ٣٧

ولبنان والنواحي الأخرى، وحداء الهودج، وخلاخيل الفيروز، وتسقط الحرب، وخرائط البرق (جزآن)، وقد صدر له الأعمال الشعرية الكاملة[٦]، عن مؤسسة البابطين الثقافية من إشراف الدكتور عبد الله المهنا ومراجعته سنة ٢٠١٤م.

وكان من أبرز شعره ديوانه (مذكرات بحار) الذي اتخذناه أنموذجا في هذه الدراسة، وقد صور فيها معاناة الأجيال السابقة من الكويتيين في سبيل التغلب على شظف العيش ومصاعب الحياة عندما كانوا يقضون الشهور الطويلة على مياه الخليج والبحار الأخرى ليعودوا بعدها بالأمل، وليدخلوا الفرحة في قلوب ذويهم الذين أمضوا شهورا طويلة من الترقب والانتظار، فكانت هذه المذكرات كما وصفها الدكتور عبد الله المهنا لوحات فنية بديعة صورت حالة البحار ومعاناته، وقدمت أيضا صورة واضحة عن موهبة الفايز وشاعريته، وكانت جواز مرور إلى مصاف المبعدين البارزين في الوطن العربي[٧]، ويبدو للمطالع لمذكرات بحار شاعرية تلك الشاعرية السامقة، وقد بدأ من خلالها مرحلة التجديد، فكان من طلائع المجددين في الشعر العربي المعاصر، وهي تتزامن مع الوقت الذي كانت الساحة تضج بالصراعات حول قضية شعر التفعيلة، وقد نظمها بهذا الفن المستحدث، " وكانت في وقتها ولا تزال عملا إبداعيا رفيع المستوى سواء في تقنياته الفنية، أم في تشكيلات أبنيته اللغوية، التي استطاع في سياقاتها المختلفة أن يصهر المصطلحات الدارجة في البيئة الكويتية القديمة؛ لتصبح جزءا فاعلا في البنية اللغوية لفهم النص الشعري[٨].

وقد تناول في (مذكرات بحار) حياة بحار في المجتمع الكويتي قبل النفط، وامتدت إلى عشرين مذكرة، بسط فيها حياة البحار، والمآسي والمصاعب التي كان يمر بها، وكل مذكرة منها تحمل عالما شعريا مستقلا، وهو مرتبط بالمذكرات الأخرى ضمن السياق الشعري المتفرد، وقد حلى حياة الكويتيين في ذلك الزمن، وتعمق في وصف مظاهر الفقر، والعادات والتقاليد المتبعة، فضلا عن سيطرة التجار على مقدرات الحياة.

وقد وصفت الدكتورة سعدية المفرح ديوان (مذكرات بحار) بقولها: " مثل ديوان مذكرات بحار - الذي رسم فيه محمد الفايز ملامح البحار الكويتي، بصوفه نموذجا للبحار العربي عموما - ثورة شعرية حقيقية اندفعت بقوة في بحر الشعر الكويتي الهادئ، خاض من خلالها غمار التجريب الشعري عبر إعادة كتابة قصة السندباد بكونه مواطنا كادحا لم يجد سوى أعماق البحر المخيفة ليبحث فيها عن رزقه بشجاعة ومهارة ومرارة أيضا. وهكذا سجل الشاعر في تلك المذكرات تاريخا غير مكتوب للإنسان في الكويت من خلال علاقته الإشكالية بالبحر بوصفه مصدرا للرزق وموئلا للأحلام، وأيضا بوصفه وحشا متربصا بالبشر المعتدين على سحر غموضه وهدوء أعماقه [٩].

وقد مثل ديوان (مذكرات بحار) الذات المغتربة خير تمثيل؛ حيث كان الاغتراب معادلا موضوعيا لتعقد الحياة، وتمثل الذات الشاعرة للذات الجمعية التي تنقل أحاسيس الناس

---

[٦] محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة، أشرف عليه وراجعه وقدم له الدكتور عبد الله أحمد المهنا، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، المجلد الأول، ٢٠١٤ م: ٣

[٧] المرجع نفسه: ٥

[٨] محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة: ٣٧

[٩] محمد الفايز ... سندباد القصيدة العربية (شاعر العدد)، د. سعدية المفرح، مجلة العربي، فبراير ٢٠١٠م

ومشاعرهم ومعاناتهم، وقد نشأت في الشعر العربي في تلك الآونة ظاهرة الاغتراب عند عدد من الشعراء، فعاشوا اغترابا روحيا ونفسيا واجتماعيا واقتصاديا، وعبروا عن الانتكاسة الحضارية وما أفرزته في المجتمعات العربية، وانعكس ذلك في شعرهم.

- **تجليات ذات الشاعر بين الاغتراب والحنين:**

هناك مجموعة من المسميات لمصطلح الاغتراب: " وتؤدي إلى معناه مثل (الغربة)، و (الانفصال)، و (الانعزال)، و (الوحدة)، و (الانخلاع)، و (التخارج)، و (الانتقال)، و (الابتعاد) إلى غير ذلك من المعاني الاصطلاحية "[١٠].

تعد قضية المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي مر بها الإنسان العربي في القرن العشرين من القضايا التي تنطوي على كثير الصراع على المستويات كافة، وهكذا " تبدو صورة إنسان العصر مبالغ فيها إلى حد كبير، ومسرفة في كآبتها وتمزقها وضيقها، فهي مغلقة بالقتامة والنظرة السوداوية، داعية للألم ، ومثيرة للأحزان، فالناس الذين يعملون كالأجهزة التي لا تتوقف يمضون وكأنهم هياكل تتحرك دون إرادتها، وتسير على غير مرادها؛ إنهم تابعون منقادون، وأحاسيسهم متلبدة ومشاعرهم مفتقدة، ومن ثم فهم في حركة لا إرادة لهم فيها ... حركة آلية تخلو من الروح الإنسانية، لامتلاء النفس بالأسى، فالمرء مغلوب على أمره، مقهور وسط جماعته [١١]، وشاعرنا الفايز يمثل تلك المرحلة خير تمثيل، وهي مرحلة ما قبل النفط في الكويت، واعتماد الكثير من الكويتيين على السفر عبر البحر للتجارة والغوص، وسط أهوال البحار، والعيش بين الغربة والاغتراب، " فالغربة تكون مكانية في النأي عن الوطن، ثم الحنين والشوق والتوق إليه، ورفض لما يراه في البيئة الجديدة. فهي منزع رومانسي، وتيار يتمسك فيه الشاعر بالتقاليد، ويحث للمكان، ويلجأ للماضي كلما ضاقت به السبل، وأما الاغتراب فله ظل آخر، ومعنى مختلف؛ إنه يدل على اغتراب النفس والروح بكل ما يعتور النفس من نفور وقلق، وعدم التواؤم مع المجتمع والبيئة سواء أكانت بيئة ثقافية أم اجتماعية أم سياسية؛ إن الاغتراب ثم: ورة على الأوضاع القائمة، وهو اغتراب النفس في الحياة، والتشتت وتوزع النفس وسط خضم الأحداث "[١٢]، وقد جمع الفائز في (مذكرات بحار) بين الذات الغريبة والذات المغتربة، في انسجام بديع في الفضاء الشعري المتمكن، بحيث نستطيع القول إن الضياع مثل ظاهر في الشعر الكويتي في تلك الفترة.

والاغتراب: " يشكل بشموليته تجربة إنسانية واعية عميقة، وتستمد عناصر تشكيلها من روافد بيئية وثقافية وتأريخية واجتماعية متعددة، منها ما يفد من إحساس الإنسان بضياع المغزى الذي من أجله يجهد المرء ويكابد .

---

[١٠] الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة بين النظرية والتطبيق من (١٩٦٠م-١٩٦٩م)، حسن سعد السيد: ١١، وما بعدها

[١١] ظاهرة الاغتراب وصداها في الشعر المعاصر في الخليج، د. عبد الخالق علي، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر، السنة ٧، العدد ٧، ١٩٩٥م: ٩٨ .

[١٢] المرجع نفسه: ٩٨.

وقد يشعر الإنسان إزاء هذه الأفكار ببعثية الوجود ولا جدواه، وهنا يطرح تساؤلات لا حصر لها، ليعرف الذات وجدوى فعلها، وسبر أغوارها الإنسانية الخبيئة، أو التوصل إلى سر غموض الحياة البشرية"[١٣].

وتجليات الذات المغتربة، تمثلت بالحديث عن الألم الذي لا ينقطع، ومصادر المعاناة بحثا عن السعادة، التي لم تحققها حياة البحار بإيقاعها البطيء أو المتلاحق بالحزن والألم والقهر، وقد تجلت في بعض الأمور التي لا يمكن للبحث أن يغفلها ومنها:

١- اللقاء والوداع:

يعد الحنين غريزة عند الكائنات الحية، فالإبل تحن إلى مواطنها، والطير تجن إلى أعشاشها، وينسحب ذلك على الحيوانات جميعها، وهذا عند ما لا يعقل من المخلوقات، فكيف بالإنسان الذي يتيه العقل والعاطفة، والحنين إلى الأوطان ظاهرة إنسانية عامة، وهو عند العرب أشد رسوخا. و" السبيل الوحيد للتخلص من حال الاغتراب لا يكون برفض الوجود رفضا مطلقا، ولكن بالتوازن بين الداخل والخارج، فيصير التعبير عن الاغتراب مخرجا يعيد للذات توازنها وتأقلمها مع مجريات الأحداث الغالبة، كما يكون بالإيمان والرضا المقنع وصفاء الروح، فيكون الوجود الإنساني ذا معنى بتجلية الذات فوق ما يجري ما دام غير قادر على تغييره[١٤].

أما شاعرنا فقد مثلت الذات المغتربة المودعة في شعره أيقونة خاصة، فقد حمل البحار معه الأهل والديار في رحلة الاغتراب القاتلة الممتلئة بالأسى واليأس من اللقاء بعد الوداع، وبهذا تشظت ذاته الشاعرة إلى ذات مغتربة يلفها الحنين من كل جانب، فهو لا يكاد يصل ويرسو حتى يكون الرحيل في طيات القدوم، والشعور بعدم الرجوع، وبدء الحنين حتى وهو بين أهله، فشمسهم بلا أقمار، والظلام يلقهم من كل جانب، وحياتهم إلى فناء، والأبواب كالمقابر، والسماء تمطر بالجدري وبالموت؛ وهو بهذا السياق المأساوي يعبر عن ذاته المغتربة اليائسة، وذلك في قوله[١٥]:

يا ليت أهدابي شراع للسفينة
غداً القلوع
أمس سونا والرحيل غدا، وما لي من جوع
غيث أمس للغيون وللورود على الخدود
تمنيت أمس لمن أحب وهمت في ليل البحار
لأعود ثانية لها، ومعي الهدايا للصغار
واليوم حاربت الظهيرة والنهار
شمس بلا أقمار عينيها ظلام
أطف الشموع
فعيون طيبة كل ما حوت الشموع

---

[١٣] ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة (أسبابها وقضاياها المعنوية والنفسية)، د. سالم الحمداني، طبعة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل : ٦٩ وما بعدها.

[١٤] ظاهرة الاغتراب وصداها في الشعر المعاصر في الخليج، د. عبد الخالق علي، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر، السنة ٧، العدد ٧، ١٩٩٥م:

[١٥] المرجع نفسه: ٢٨-٢٩

والكل وهم والحياة إلى الفناء
أبوابنا غلقت كمقبرة فأمطرت السماء
بالموت والجدري أمطرت السماء
بيتي تهاوى مثل أضلاعي ومات به العبير
حتى الحصير
لم يبق منه الداء شيئا يا حياتي يا فناء
* * *
يا (شهرزادي) في البحار
أروي حكايتها لروحي والوداع
فأنا سأرحل أصدقائي والشراع
في الشاطئ النائي سأرحل فالوداع

وهو في تعبيره عن تيمة الحنين، يمعن في الوصف، ويضعنا في جو من الكآبة التي يعيشها البحار؛ فأصواتهم حين يبحرون كصرير أبواب القلاع، وكالآهات في الظلمات، وكدوي الرعد فوق المقابر البعيدة، وكرنين الأجراس العتيقة، حتى صوت (النهام) كصوت الغراب، والحزن يلقهم من كل جانب، ومواعيد العودة تلف القلوب الحزينة، ونعيش تلك الذات المغتربة المثقلة بمشاعر الحنين معه وكأننا نعيشها واقعا، ونراه يبرع براعة كبيرة في استدعاء التراث حين يعبر عن تلك الذات المغتربة، فيستدعي قصة نوح عليه السلام، ويربطها بقصتهم، فعنده أبناء نوح على متن السفينة يبحثون عن ساحل، وهو يبحث عن محار، ويستدعي الغراب أيضا ولكن بتجليات مبدعة حين يعود كالمطرود في وضح النهار، ويمثل رسالة سوداء مغبرة، وقد تمثل ذلك في قوله [١٦]:

كصرير أبواب القلاع
في الفجر كالآهات في ظلمات قاع
كدوي رعد فوق مقبرة بعيدة
كرنين أجراس عتيقة
أصواتنا فوق السفينة حين تبحر و(النهام)[١٧]
كغراب حارات قديمة
يشدو بألحان حزينة
للبحر والمحار: أبحرت السفينة
ووغداً نعود لكم أحبائي على شاطي المدينة
حاراتكم فوق الرمال ونحن في ليل البحار
ضوء النهار نصيبنا منه الظهيرة والجثام
أبناء نوح فوق متنك يبحثون
عن ساحل وأنا أفتش عن محار

---

[١٦] محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة: ٣٣

[١٧] (النهام): هو مطرب السفينة، وله صوت شجي يحفز البحارة على بذل المزيد من الجهد

ذهب الغراب ولن يعود
إلا غرابي عاد كالمطرود في وضح النهار
كرسالة سوداء يعلوها الغبار

وذاته المغتربة في رحلة الحنين تبحث عن مدينته القديمة، وعن حارته الرملية، وعن تلك المقل الحزينة التي تنتظره وزادها الدموع، ويتذكر تلك العيون المترقبة لسفينة الماء، وهو في ظل هذا الحنين المضني، والكآبة القابعة في النفوس، يبرز قيمة إيمان الرجال بالعطاء رغم الجفاف، فهم المطر الذي يروي النفوس، وهنا تتصادم تلك الذات المغتربة مع صناع الموت، والتجار وسكان القصور، وهو يذكرهم في السياق لتعريتهم، ولتظهر تلك الذات المتمردة الساعية إلى التغيير، فنراه يقول [١٨]:

مازلت أذكر كل شيء عن مدينتنا القديمة
عن حارتي الرملية الصفراء والمقل الحزينة
لما تحدق في السماء على السطوح
نضبت جرار الماء والغدران مثل يد البخيل
محلت فأمست كالقبور
مخسوفة سوداء تملأها الصخور
وعلى الضفاف الغارقات
بالشمس والرمل المندي والضباب
وقف الصحاب
يترقبون سفينة الماء التي قالوا: تعود
بالماء من نهر الشمال
وعلى ظهور جمالنا الظمأى تحجرت القراب
سوداء فارغة يغطيها التراب
وكما تنير الشمس أعماق الكهوف
إيماننا بالأرض ملء قلوبنا رغم الجفاف
نحن الرجال
نحن العطاء إذا تعرت الحياة عن العطاء
الجنية الخضراء والمطر الذي يزوي الحقول
لا في القصور الشامخات
أو في خزائن أغنياء مدينة إسطنبول أو روما
البعيدة

وفي مذكرته الثامنة عشرة تعبر ذاته المغتربة عن مشاعر الحنين، فيستدعي صوت الدفوف التي تقرعها النساء قبل الرسو على الشاطئ، وتزيد تجليات الحنين حين يجعل الشراع كحمامة أرهقها الطواف وعادت بالحنين إلى الضفاف، وذلك الفرح الحزين بقدوم العائدين، ويستدعي حبيبته إلى زمن الحنين المتشبث في النفس فيراها نجمة بين النجوم يلمحها بين النساء، ويصور

[١٨] محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة: ٣٦-٣٧

ساعة دخوله عليها على نور ضوء فانوس وتهليل مع رائحة البخور ليذيب فيها عمره، وفي ذلك يقول[١٩]:

صوت الدفوف يرن في أذني فتشربه الضلوع
من الحنين
قبل الرسو إلى الضفاف المشرقات
بنسائنا ودفوفهم نساؤنا المتطلعات
للبحر حين شراعنا كحمامة بيضاء أعياها المطاف
فلها حنين للضفاف
وكفرحة الأيدي الرشيقة حين تضرب
أو تلوح بالدفوف
فرح القلوب الحاملات الأغنيات
والشوق من شمس البحار
وكما أميز وردة بين الورود
أو نجمة بين النجوم لمحتها بين النساء
وأكاد أنشق عطرها قبل اللقاء
وغدا سأدخل بيتها بعد المساء
سينير دربي فانوس وتهليل ورائحة البخور
في بيتها الطيني يؤمئ لي ليبتلع الزمان
يومي وشمس غدي ليجمعني وإياها مكان
سأذيب فيه العمر يا أشهى العطور ويا حرير

وكانت تيمة الحنين رائده في كل ما كتب، فقد جرت عليه الكثير من المشاعر المتضاربة، وأفرزت الكثير من المآسي التي عاشها، ومثل بذلك تجربة الضياع والتمزق النفسي والاضطراب الداخلي والقلق الوجودي والغربة الذاتية والمكانية خير تمثيل، كل ذلك في سياق تعبيره عن ذاته المغتربة، ومن فضاءات هذه الذات عزف في كل ما كتب في مذكرات بحار أنغاما حزينة تترجم سيمفونية الضياع والتيه والاغتراب والانهيار النفسي والتآكل الذاتي والذوبان الوجودي بسبب تردي الأحوال في تلك المرحلة التي رصدها في الكويت.

٢- **الضياع:**

كانت تيمة الضياع بارزة في كل مذكراته؛ فهو لا يرى جمال البحر بسبب شعوره بالضياع، وكذلك بسبب هروبه من جفاف مدينته، فهو بين عالمين: عالم يتشبث بالحياة، وعالم الموت الذي ينتظره مع كل رحلة وهو يعيش في خضم الحياة يحاول إيجاد معادل موضوعي من خلال الأمل؛ ولذلك يصنع الأمل ليبقى على قيد الحياة، وذلك في قوله [٢٠]:

البحر أجمل ما يكون
لولا شعوري بالضياع

---

[١٩] محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة: ٦٥-٦٦

[٢٠] محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة: ٤٣

لولا هروبي من جفاف مدينتي الظمأى وخوفي أن أموت
عريان في الأعماق أو في بطن حوت
إني أحاذر أن أموت
لما أفكر أن لي بيتا ولي فيه عيال
لما أحس بأن في الدنيا جمال
الشمس في الآفاق كالإيمان في قاع النفوس
ومن القلوب المؤمنات
بالأرض بالإنسان تنبثق الحقيقة والحياة
زرقاء صافية كعيني حبيبتي عند اللقاء
وغداً مطر غيمتي يذوب في الرمل الصقيع

ومشاعره جعلت ذاته الشاعرة المغتربة تبحر في ضياع الإنسان منذ عهد قابيل الذي تهاوى العالم فيه إلى الحضيض من وقته، ولكنه يضع يده على الجرح، ويعرف من حفره في نفوس البشر؛ إنهم تجار البشر الذين ينعمون في قصورهم وملذاتهم، فهو وغيره من المسحوقين الضائعين يعملون لجلب اللآلئ والعطور النساء الأغنياء وجواريهم، ولأولئك الذين يزحفون بمبانيهم الشاهقات على منازلهم القديمة، وتسمو ذاته المغتربة هنا فوق الجراح لتعري العالم المأفون المحكوم بالمال، وهو يعبر بالسؤال، والسؤال نافذة مهمة يطل من خلالها على المتلقي؛ ليعبر بالإجابات المسحوقة عن عالمه، وقد كرر : " ماذا أقص لكم؟"، وهذا السؤال ونسبته إلى نفسه وتكراره يعمق الرابطة بين ذاته المغتربة وبين من يتوجه إليهم، ويوحي بذهول ذاته وإحساسها بالضياع، أمام هذه القصص التي تحمل المفارقات في ذلك العالم الحزين، وفي ذلك يقول [٢١]:

قصص البحار كثيرة
ماذا أقص لكم؟ وهل تتحسسون
وخز الحرارة في حروفي؟ والحروف
أعصاب إنسان يغني أو يموت
ماذا أقص لكم وفي صدري تموت
أحلى أغانيه وحبكم القديم
وجحيم ليل الأمس أحرقني، وهأنذا رماد
وغداً تجلبه الأيادي كي يصير
تمثال عار للجميع وكاللسان
أبدا يحدث عن حقارة عالم
من هو (قابيل) تهاوى للحضيض
قصص الذين يغامرون
كيما يعودوا باللآلئ والعطور
لنسائكم وإلى الجواري الشاربات دم العيون

[٢١] محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة: ٥٤-٥٥

لم يبق غير الذكريات
الزاحفات على المباني الشاهقات
المطبقات على منازلنا القديمة

٣- الحزن

الحزن من أبرز المضامين الشعرية للشعر العربي المعاصر، وقد أشار النقاد إلى الحساسية الخاصة التي تميز المبدع عن سائر البشر، والفرق" يتجلى في التكوين النفسي للشاعر، وهو تكوين متميز - كما يصفه علماء النفس - يقوم على الإحساس المرهف والخيال الخارق. وهذا التكوين الخاص أو المتميز يجعل الشعراء والفنانين وسائر المبعدين في حالة قلق دائم وتوتر مستمر" [٢٢] وشاعرنا من أولئك الشعراء الذين غلبت عليهم تيمة الحزن نظرا للظروف الحياتية التي مرت بها مجتمعاتهم، فقد وصلت ذاته المغتربة إلى تلك التيمة وعكست انفعالات النفس ومدى استجابتها لما يدور في فلكها الحزين، وقد نجحت ذاته الشاعرة في تعرية الظروف، وصدق فيه قول الدكتور عز الدين إسماعيل:" إن نزعة الحزن في شعرنا المعاصر قد أضافت إلى التجربة الشعرية بعامة آفاقا جديدة زادتها ثراء وخصبا... وولدت طاقات تعبيرية لها أصالتها وقيمتها " [٢٣]، والمتتبع المذكرات شاعرنا يجد أنه مسكون بالحزن والألم، ونجده باحثا عن الأمل في طيات شعره، وقليلا ما يجده ويعبر عنه، فهو يقول [٢٤]:

الليل يطبق فوق حارتنا الحزينة والنجوم
زرقاء لاهثة كألسنة ظماء
وأنا ووالدتي وموقدنا المرمد لا يزال كرأس والدتي العجوز
فيه بصيص من لهيب سوف يطفئه الزمان
قد أبحرت سفن المغاص وأنت باق والرغيف
كحمامة بيضاء تقطن في البحار
وتطلقت عيناي من ثقب الجدار
تتسلق الأفق الدجى إلى السماء
كالعنكبوت
وسمعت والدتي تقول:
في البحر رزق الناس يا ولدي وأيام الجفاف
في الأرض ما برحت ومن يلق الشباك
يأكل. وفي قاع البحار
الخاتم المسحور والرزق الكثير
وتروح والدتي تقص على ما سمعته من إحدى النساء
الساهرات على المواقير في الشتاء
عن ذلك الصياد والكنز الثمين

---

[٢٢] الشعر بين الرؤيا والتشكيل، عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨١م:٦٠

[٢٣] الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ط٣، دار الثقافة، بيروت: ٣٥٢

[٢٤] محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة: ٥٨-٥٧

وعروسة الماء الجميلة حين مزقت الشباك لكي تعود
للبحر ثانية وعن حجر ثمين
للآن يحلم فيه بحار وصياد يجول وكالغراب
طار الخيال إلى الصحاب
ونراه يغني مذكرته هذه بقوله:
وكما يغني في بحارهم الصحاب
تحت الشراع
غنيت حين سلكت دربي للمدينة
أواه يا روحي الحزينة
لا شيء عندي تملكينه

يظهر الفائز في هذه المذكرة قلقه وحزنه وتوتره النفسي، فساق لنا تلك المشاعر الحزينة عبر قصة شعرية مميزة، واستدعى والدته إلى زمن الكتابة لتقصها عليه؛ فهو مسحوق الذات، والحزن يعشعش فيها، ولكن الرزق لا يسمح له بالبقاء دون أن يعود إلى البحر الذي فيه أحزانه؛ لينفجر في نهاية القصيدة ليعلن انتصار الأحزان على روحه. وكان من أبدع ما فعله أنه كان يشخص الأحزان، ويجعل كل ما يحيط به مشاركا له؛ فالليل يطبق فوق الحارة الحزينة، والنجوم لاهثة ظماء، والموقد مرمد... وهو يشارك بذلك الشعراء الذين صار الحزن عندهم ظاهرة معنوية تدخل في بنية العديد من القصائد، وفي ذلك يقول عز الدين إسماعيل:" وفي شعرنا المعاصر استفاضت نغمة الحزن حتى صارت ظاهرت تلفت النظر، بل يمكن أن يقال إن الحزن قد صار محورا أساسيا في معظم ما يكتب الشعراء المعاصرون من قصائد" [٢٥]، والمشهد العربي هو بؤرة للأحزان، وموطن لقتل الفرح.

والفايز ممن رصدوا حالة واقعية، جرت فيها أحداث أولئك البحارة الذي اغتالت الأحزان أحلامهم وسرقتها، وعاشها الفايز بأبعادها الاجتماعية والإنسانية وبهمومها الوطنية. فهو يتشظى بين الآلام والأحزان والانكفاء على الذات، فيحشد في مذكرته السابعة عشرة كل ما يحيط به، ويجعله مشاركا له في ذلك الحزن النبيل، فالأرض تطردهم، والبحار تلفظهم، والليل مظلم، وهياكل الموتى يرميها البحر، والريح حطمت السفينة، والأفق أسود. وذلك بقوله [٢٦]:

الأرض تطردنا وتلفظنا البحار
للقاع أو لسواحل ظمأي تعريد في مجاهلها الرياح
والليل حيث كهوفه السوداء كالأشداق تملأها العظام
وهياكل الموتى الذين رماهم البحر المعربد في الظلام
ها نحن تحت الريح نبحث عن ضفاف
الريح حطم السفينة فهي الأرواح يبعثرها العباب
كعظام إنسان تكسرها الخناجر والحراب
والأفق أسود كالغيون المطفآت

---

[٢٥] الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، ط٣، دار الثقافة، بيروت: ٣٥٢

[٢٦] محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة: ٦٢

والبحر مثل ضمير جلاد كآدم حين أغوته الحياة

ثم أراد كسر هذا الشؤم في كل ما أحاط بهم، فبدأ بالتساؤل المشروع وقتها: " أين الطريق؟"، ولكن الصدمة في الجواب، فالطريق لم يضيعوه في البحر، بل أضاعوه قبل أن يركبوا البحر:

أين الطريق ؟ لقد أضعناه على الأرض الكئيبة والبحار
لا شيء وانطفأ النهار وغاب ثانية وعاد
وأنا وصحبي الهائمون بلا دليل
نتفقد الشطآن لا ماء ولا زاد سوى زبد الأجاج
وسوى الاجترار

وللأسف يدرك الشاعر أنه لا جدوى من محاولة اجترار الأمل، فكأننا به ينتظر زمانا آخر ومكانا آخر تتحقق فيه أحلامه وآماله، وهو بذلك يدين الزمن الواقعي الذي يعيشه في دائرة الخوف والخشية، فهو يسعى إلى زمن الحلم، بين رموز التشيز والاغتراب، فقد اجتمعت عليه وعلى رفاقه كل معاني الحزن والخوف: (الأفق رطب حزين، والشعور بالموت المقترب، والأرض والبحار تطردهم، والحوت جائعة لأمثالهم، وكذلك الأرض البعيدة).

يقول:

شيء بداخلنا يموت
ورطوبة الأفق الحزين نلقها لقا من الظمأ الشديد
فلعل فيها قطرة تشفي غليل
وشعرت في مؤتي يشد يدي وأذني للرفاق العائمين
قربي غراة يلهثون وقد تغورت العيون
الحاملات حقارة الأرض الذليلة
وسمعت صوتا في القرار
أين الفرار؟

إنه يعبر عن تلك الذات البائسة في ظل واقع طبقي يسحق الفقراء من أمثاله، يحرمهم مباهج الحياة على الأرض، ويجعلها حكرا على طبقة معينة، والحقيقة أن السوداوية طغت على هذه المذكرة، فهو لا يرى من واقعه إلا الموت والعقم والخوف، وهي ليست مأسي ذاتية فحسب، بل هي هم جماعي، ويتداخل في شعره الهم الفردي مع الهم الجمعي، ولذلك فإنه يلجأ إلى نافذة السؤال الذي يأخذه إلى المنحة النفسي والفلسفي، بطرح السؤال أكثر من مرة : " أين الفرار؟"، " ولم الوصول؟"، و" ماذا يفعلون "، فهو يضعنا بين ثالوث فسلفي: البحث عن المنجى، وهل ستحقق النجاة مرادهم؟ وماذا سيفعلون؟:

أين الفرار؟
الأرض تطردكم وتلفظهم متاهات البحار
الحوت جائعة هنا والأرض ظامئة هناك
لابد منك وإن نجوت من هلاك سوف يعقبه هلاك
وسألت نفسي إلى أين الفرار؟
ولم اللجوء إلى الضفاف ونحن فضلنا البحار
أهنالك ثالوث؟ وعربد ملء أعماقي جواب

لا شيء والدنيا عذاب
ها نحن فوق البحر أربعة وخامسهم يموت
غرقا قبيل وصولنا الشاطئ وكان لظى الرمال
تحت الظهيرة ذوب أكباد بها داء عضال
وتلقفتنا الأرض حاقدة كتنور گبير
ولم الوصول؟
لم لم نمت غرقا إذا كان المصير
في الأرض جوعا للجميع؟
ها نحن غرثى هائمين بلا متاع
لا شيء غير الجوع والأخشاب نأكلها كأن بها بقايا من ثمار
ومن الأجاج نعب كأسا من زلال
والجنة الخضراء تبرق كالمواقد في الخيال
وتطلعت حولي العيون
مثل الخروق
وشعرت بالخوف العظيم
وقلت ماذا يفعلون؟

إنه يربط ربطا بارعا بين ما يلاقونه من أهوال البحر، وما سيلاقيهم في المكان الذي يرجون الوصول إليه. إنه يأس لا ضفاف له، وحزن وسوداوية، وشعور بوطأة الزمن وبثقله الذي يسحق ذاته المغتربة؛ حيث تموت الأحلام على صخرة الواقع السماء.

٤- الذات المغتربة وفضاء السؤال:

إن السؤال الشعري من أهم عوامل إنتاج النص الشعري المكثف، ومنها إظهار الغائب وتوليد الدلالات، والسؤال شاعري غير الاستفهام، فالسؤال ينفتح على أفق أوسع، ولاسيما في ميدان الشعر، والاستفهام نوعان، نوع حقيقي، وهو ما طلب به المتكلم من السامع بأن يعلمه ما لم يكن معلوما عنده من قبل، وقد عرفه السكاكي (٦٢٦ه) بقوله: " طلب الحصول على أمر مبهم في الذهن، يهم السائل ويعنيه"[٢٧]، والنوع الثاني من الاستفهام هو الاستفهام المجازي الذي يرمي إثره المستفهم جوابا، بل يود إيصال معان أخرى، وهذه المعاني أشار إليها القدماء في كتبهم، فقد تحدث سيبويه في كتابه على أنواع منه، ومنها : الاستفهام التوبيخي، والاستفهام الذي يفيد التعجب... ولذلك فإن الشعراء يلجؤون إلى توجيه السؤال للنفس، للآخر، دون أن ينتظروا منهم جوابا، فسأل عما هو عارفه. فثقافة النص الشعري تثير إشكاليات تحتاج أسئلة.

والاستفهام من الظواهر الأسلوبية المميز في كينونة النص الشعري المعاصر، ومثل عند شاعرنا أداة تميز المضمون، وتظهر مكنونات النفس، وهو أسلوب يكشف عن نزوع الإنسان نحو التعرف على النفس، والخروج من ضباب الحيرة إلى نور الحقيقة " [٢٨]، ويأخذ السؤال حيزا كبيرا في تجربة شاعنا الشعرية، وربما تعود أسباب كثرة الأسئلة في شعره إلى أنه يريد

---

[٢٧] مفتاح العلوم، السكاكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٢٣م: ٥٢٥

[٢٨] أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، د. حسين عبد الجليل، مؤسسة المختار، ط١، القاهرة، ٢٠٠١م: ٦

الإطلالة على عالم المتلقين من هذه البوابة؛ لأن من وظائفها إثارة قضيتي الشك واليقين، وقد استعمل الأسئلة المتظافرة" التي تكسب النص بعدا دلاليا أعمق، وتعمل على فتح فضاء التأويل"[٢٩]، والتأويل قيمة جمالية تميز الشعر المعاصر، ولذلك كان السؤال بوابة مفتوحة على التأويل، ولا يمكن الزعم بالإحاطة بما يتولد عنه من إيحاءات ودلالات .

وأكثر ما يستخدمه من أدوات السؤال الهمزة وهل، وهي أكثر أدوات السؤال ورودا في الشعر العربي، وذلك لسهولتها في الاستخدام، وهي من أكثر الأدوات تحكما بالإيقاع الشعري الخارجي والداخلي، فضلا عن ورودها في مطلع القصائد، وها هوذا الفايز يبدأ فيها بقوله:

أركبت مثلي (البوم) و (السنبوك) و (الشوعي) [٣٠]الكبير؟
أرفعت أشرعة أمام الريح في الليل الضرير؟
هل ذقت زادي في المساء على حصير؟
من نخلة ماتت وما مات العذاب بقلبي الدامي الكسير
أسمعت صوت (دجاجة) [٣١] الأعماق تبحث عن غذاء؟
هل طارد (اللمة) [٣٢] السوداء و (الدول) [٣٣]العنيد؟
وهل انزويت وراء هاتيك الصخور؟
في القاع و (الرماي[٣٤]) خلفك كالخفير
يترصد الغواص. هل ذقت العذاب؟
مثلي وصارت العباب
أمسكت (مفلقة) المحار؟
في الفجر مرتجفاً لتكتمل القلادة
في عنق جارية تنام على وساد
ريشية في حضن سيدها ورائحة المحار

إننا أمام أسئلة لا جواب لها، وتبقى مفتوحة على فضاء الانزياح الشعري، وتمنح المتلقي مساحة للإجابات المفتوحة، وهي أسئلة تقريرية؛ يريد من خلالها إثبات ذلك الضياع والقلق للبحار الذي يجوب البحر، ويرافقه في رحلته كل تلك الأمور المخيفة التي لا يمكن للبحار إلا التفكير بها.

إنه يريد أن يفجر الأجوبة في ضمائر المتلقين، وربما يحاول سحبهم إلى بؤرة السؤال الدلالية، وربما إلى دائرة الإقناع بالهم الذي تعيشه القصيدة.

وهو في تكراره للسؤال يعطي إمكانية تفجير السؤال الثاني لدلالة السؤال الأول، وربما يحوي في طياته الاستنكار والتعجب والدهشة. ويسوق كل تلك الأسئلة ليفجر بعدها ما يريد تعريته، وهو ذلك القهر الطبقي، في قوله:

---

[٢٩] أسلوبية البناء الشعري، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي، أرشيد علي محمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٩م: ٩٨

[٣٠] (البوم، والسنبوك، والشوعي): سفن شراعية تصنع في الكويت.

[٣١] الدجاجة: سمكة تشبه الدجاجة، إلا أنها سمكة جارحة.

[٣٢] اللخمة: سمكة جارحة

[٣٣] الدول: حيوان بحري شرس

[٣٤] الرمادي: حيوان بحري له شوك كالمسامير

في الفجر مرتجفا لتكتمل القلادة
في عنق جارية تنام على وسادة
ريشية في حضن سيدها ورائحة المحار

وفي ظننا أن الشاعر " حين يحتاج إلى التعبير عن عواطفه ومشاعره بشدة، يلجأ إلى صيغة السؤال وتكراره؛ لأن السؤال يبقي الأبواب مشرعة، ويفتح المعنى على أفق واسع "[٣٥].

وهو في المذكرة الثانية يتحدث عن الموضوع نفسه، الذي يبدو أن كثيرا من قهره واغترابه يتمحور حوله، وذلك بقوله:

الشمس فوق السور تشرق مثل قنديل كبير
تهدي خطانا مثلما كنا على ضوء النجوم
في الليل نسري عبر هاتيك البحار
لقلادة. لسوار حسناء ثرية
في الهند في باريس. في الأرض القصية.

السؤال في شعر الفايز أفق كبير للحضور الشعري المغترب، فهي أسئلة كونية إنسانية تفتح الكون الداخلي على الآخر بالسؤال، فتسقط الأجوبة محملة بالهم الإنساني.

ولا أخالف الواقع إن قلت إن الفارس يؤمن بالسؤال بوصفه باعثا للحياة في خطابه الشعري، ويعد معزوفة ذاتية من معزوفاته الشجية. ويجعل النص مشحونا بالحركة والطاقة، ليعرض مغامرة الدخول إلى نفس القارئ من خلال تجليات نفسه هو؛ مما يجعل للسؤال عنده بعدا نفسيا وجماليا في الوقت نفسه.

ونراه يجمع بين أداتي الاستفهام: (من)، و(أين) ومن كما هو معلوم تستخدم للاستفهام عن العاقل، وأين تستخدم للاستفهام عن المكان، ومن استخداماته لهما قوله:

عندي خمور
عندي عطور
عندي بخور الهند يا تجار مكة يا ملوك
من يشتري أفراح بحار يعود مع المساء؟
الشمس في عينيه ماتت مثلما مات العبير
والنور في بيت خلا لولا حصير
وفتيل مسرجة كأهداب الضرير
لم تنبت الأرض الزهور
وعظام موتانا بها؟ أين الحبيبة؟
ماتت من الجدري (طيبة)
من يشتري كل المحار؟
من يشتري مني البحار؟
بعيون (طيبة) يا نهار

[٣٥] شعرية السؤال في شعر جميل بثينة (دراسة في الأدوات)، م. د. صالح أرديني، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، الموصل، مجلد ١٠، ع٤: ٢٣٥

قد أطفأت عيني عيناها فحاربت الضياء
أين الضياء؟
بعيونها؟ أين انطلاقات الضفيرة
وموميض مفرقها گخط من نجوم
في ليلي أيامي الحزينة. أين أفراح اللقاء؟

وهو هنا يحقق دورة كاملة في فضاء القصيدة، بإشعاع وإثراء، فيبدأ ب(من) للبحث عن الإنسان الذي شارك في قهره، فهو كما يصفه ممن يشترون أفراح البحار، فهو وإن كان يريد بيع ما لديه مما يحصله من البحر، إلا أنه يرى ذلك المشتري مشتريا لأفراحه، وليس باعثا على الفرح في نفسه، ويسأل ب (أين) عن الحبيبة (طيبة) التي ماتت بالجدري، وهو في دوامة الفقد يعيد السؤال عمن يريد شراء المحار، والبحار، ولكن هذه المرة بعيون حبيبته الفقيدة. ثم يعيد السؤال بأين ليسأل عن الضياء، وعن ضفيرة حبيبته وعن أفراح اللقاء.

يبدو لي أنه يريد إثبات" أن الشعر جوهر الرؤيا الكشفية التي تبحث في علاقتنا بالكون، وتقرب صلتنا فيما تتخذه المعرفة البدئية بالمعرفة الوجودية؛ الأمر الذي يدفعنا إلى تفجير السؤال الناتج عن القلق المفعم بالصدى، المعلل للصمت... وهو الموقف المؤسس للوعي المتجدد، المفضي إلى تعدد زوايا الرؤيا "[٣٦].

وما بين (من)، و (أين) يضع يده على البعد الإنساني في غربة الذات، فهو في مذكرته التاسعة يعيد السؤال عن طيبة، بقول: أين الشفاه العابقات كما النابق في ژباها؟ ورداؤها العربي حين تخيطه لي يداها؟ يا ليتني مسرى الخيوط وإبرة حملت شذاها أين العيون الحالات ضوء المسارج حين يغرقني سناها أن الشفاء العابقات بالطيب والجمر الشهي المثقلات بالنار والعطر الذي هيهات تحمله الورود في كل غابات الشمالي أو الجنوب؟

في شعر الفائز تعد تقنية السؤال تقنية مضافة إلى القصيدة، فهو يعي أن " إدراك الوعي الإبداعي لدلالات هذا الواقع الممزق لا يقع في حدود الواقع المدرك بالحس، أو الوجدان، بوصفه معطي ماديا- جاهزا ومحسوسا بل ينبثق انطلاقا من زعزعة هذا الواقع، وخلخلة نظمه، وخلاياه المجتمعية المعتلة، وإحداث بلبلة من شأنها أن تعيده إلى هيئته الأولى؛ أي إعادة خلقه باستمرار، تلك هي رؤيوية المبدع الذي يتفحص الواقع، لا لينبئ به، بل لينبئ بما وراءه" [٣٧].

ولذلك نراه في المذكرة الرابعة عشرة يستخدم أداة السؤال (ماذا) التي تستخدم للسؤال عن غير العاقل، وهو يستخدمها في معرض حديثه عن القصص التي يريد أن يرويها عن قهر البحارة في مسيرة حياتهم الملأى بالألم، فيقول:

قصص البحار كثيرة
ماذا أقص لكم؟ وهل تتحسسون؟
وخير الحرارة في حروفي؟ والحروف
أعصاب إنسان يغني أو يموت
ماذا أقص لكم؟ وفي صدري تموت

---

[٣٦] مراجع المعنى في الشعر العربي الحديث، د. عبد القادر فيدوح، دار صفحات، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠١٢م: ٣-٤

[٣٧] المرجع نفسه: ٣٨

أحلى أغانيه وحبكم القديم
وجحيم ليل الأمس أحرقني. وهأنذا رماد
وغداً ستجلبه الأيادي كي يصير
تمثال عار للجميع، وللسان.
أبداً يحدث عن حقارة عالم
من عهد قابيل تهاوى للحضيض
ماذا أقص لكم
وماذا تفهمون عن الجراح الساردات
قصص الذين يغامرون
كيما يعودوا باللآلئ والعطور
لنسائكم وإلى الجواري الشاربات دم العيون ...

وهكذا نراه يستمر في فلك السؤال بماذا، فهو يؤمن بقيمة السؤال الجوهرية بوصفه حاجة من حاجات الذات المغتربة لتحديد الرؤى، ولا يمكن للوعي أن يثمر في النفوس إلا إذا سبقته الأسئلة، ومن خلال بحث المتلقي عن الإجابات ترسم ثقافة السؤال مسارها، ومما وراء السؤال تتضح المأساة، ولا قيمة لسؤال دون أن يوحي بإجابة مدهشة.

إن تفجير الأسئلة في فضاء الشعر تبعث واقعا جديدا، بما يتنبأ القارئ من البعث الكامن في أجوبتها. وقد اعتمدت الذات المغتربة على الطاقة الاستفهامية بتجلياتها الواسعة. فهو في المذكرة السابعة عشرة يفجر مجموعة من الأسئلة التي يوحي من خلالها بهول ما يلاقي البحارة في البحار. بقوله:

والبحر مثل ضمير جلاد كآدم حين أغوته الحياة
أين الطريق لقد أضعناه على الأرض الكئيبة
والبحار لا شيء وانطفأ النهار وغاب ثانية وعاد

* * *

وسمعت صوتا في القرار
أين الفرار؟
الأرض تطركم وتلفظكم متاهات البحار
الحوت جائعة هنا والأرض ظامئة هناك
لابد منك وإن نجوت فمن هلاك إلى هلاك سوف يعقبه هلاك
وسألت نفسي إلى أين الفرار؟
ولم اللجوء إلى الضفاف وفضلنا البحار
أهناك ثالوث؟ وعربد ملء أعماقي جواب
لا شيء والدنيا عذاب
ولم الوصول؟
التي لم نمت غرقا إذا كان المصير
في الأرض جوعا للجميع؟

ويبدو لنا الفايز يخترق بالأسئلة بؤرة المشكلة، ويعي جدارة السؤال في تفجير الأجوبة في عالم المتلقي، التضع المسؤول في مواجهة السائل، وأغلب أسئلته مفجعة؛ لأن الجواب مضمن فيها؛ فهو لا ينتظر الإجابات، بل هو باحث عن الوعي، ليجسد دلالات التوتر، ويفتح الأفق على فضاء القصيدة، ويجعل القارئ ممارسا لفعل التلقي باقتدار عال.

إنه عالم السؤال الذي يحمل مع (الهمزة)، و (هل)، و (أين)، و (ماذا)، و(من)... الحزن ولوعة الاغتراب والفقد وضياع القيم؛ انتظارا لإجابات في الوعي الجمعي، فضلا عن أن الشاعر من خلالها ينفس عن ذاته بالأسئلة المفتوحة والمستحيلة الناتجة عن الذات المغتربة، والصافعة للذوات النائمة غير الحية.

الخاتمة:

أظهر البحث ارتباط ثلاثية الاغتراب والحنين والسؤال في شعر محمد الفايز الذي كان من أعلام الشعر العربي في الكويت والوطن العربي، وقد وقفت على هذه الثلاثية في ديوانه (مذكرات بحار) التي صور فيها معاناة الأجيال السابقة من الكويتيين في سبيل التغلب على شظف العيش ومصاعب الحياة.

وقد مثل ديوان (مذكرات بحار) الذات المغتربة خير تمثيل؛ حيث كان الاغتراب معادلا موضوعيا لتعقد الحياة، وقد تجلت ظاهرة الاغتراب لتمثل تجربته الإنسانية الواعية العميقة، التي استمدت عناصر تشكيلها من روافد بيئية وثقافية وتاريخية واجتماعية.

ومثل اللقاء والوداع أيقونة؛ حيث حمل البحار معه الأهل والديار في رحلة الاغتراب القاتلة الممتلئة بالأسى واليأس من اللقاء بعد الوداع، وكانت قيمة الضياع بارزة في كل مذكراته، فقد كان بين عالمين: عالم يتشبث بالحياة، وعالم الموت الذي ينتظره مع كل رحلة.

وكان الحزن من أبرز المضامين الشعرية، وذلك للتكوين النفسي للشاعر الذي يقوم على الإحساس المرهف والخيال الخارق.

وكان السؤال الشعري من أهم عوامل إنتاج النص الشعري المكثف، ومنها إظهار الغائب وتوليد الدلالات؛ حيث وعى جدارة السؤال في تفجير الأجوبة في عالم المتلقي.

المصادر والمراجع

١- أساليب الاستفهام في الشعر الجاهلي، د. حسين عبد الجليل، مؤسسة المختار، ط١، القاهرة،٢٠٠١م: ٦

٢- أسلوبية البناء الشعري، دراسة أسلوبية لشعر سامي مهدي، أرشيد علي محمد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٩٩م: ٩٨ .

٣- الاغتراب، ريتشار شاخت، تحقيق كامل يوسف حين، ط١، ١٩٩٦: ٦ .

٤- الاغتراب في الدراما المصرية المعاصرة بين النظرية والتطبيق من (١٩٦٠م-١٩٦٩م)، حسن سعد السيد: ١١، وما بعدها .

٥- الاغتراب في شعر نازك الملائكة، د. ساجدة عبد الكريم التميمي، دار غيداء للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠١٧م: ٣٣-٣٤ .

٦- الحنين والغربة في الشعر العربي، د. يحيى الجبوري، ط١، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٨م: ١٦ .

٧- السؤال فضاء شعريا: ديوان حرائق التكوين أنموذجا، على الإمارة، جريدة الأديب، ع٢٠:١٧٨
٨- الشعر بين الرؤيا والتشكيل، عبد العزيز المقالح، دار العودة، بيروت، ط١، ١٩٨١م: ٦٠ .
٩- الشعر العربي المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، د. عز الدين إسماعيل، ط٣، دار الثقافة، بيروت: ٣٥٢ .
١٠- شعرية السؤال في شعر جميل بثينة (دراسة في الأدوات)، م. د. صالح أردينى، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، الموصل، مجلد ١٠، ع٤: ٢٣٥.
١١- ظاهرة الاغتراب وصداها في الشعر المعاصر في الخليج، د. عبد الخالق علي، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية، جامعة قطر، السنة ٧، العدد ٧، ١٩٩٥م: ٩٨ .
١٢- ظاهرة الحزن في شعر نازك الملائكة (أسبابها وقضاياها المعنوية والنفسية ، د. سالم الحمداني، طبعة وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، جامعة الموصل: ٦٩ وما بعدها .
١٣- الفروق اللغوية، أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة، القاهرة، د. ت: ٣٧
١٤- محمد الفايز الأعمال الشعرية الكاملة، أشرف عليه وراجعه وقدم له الدكتور عبد الله أحمد المهنا، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري، المجلد الأول، ٢٠١٤ م: ٣ .
١٥- محمد الفايز... سندباد القصيدة العربية (شاعر العدد)، د. سعدية المفرح، مجلة العربي، فبراير ٢٠١٠م .
١٦- مراجع المعنى في الشعر العربي الحديث، د. عبد القادر فيدوح، دار صفحات، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠١٢م: ٣-٤ .
١٧- مفتاح العلوم، السكاكي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط١، ١٩٢٣م: ٥٢٥

The phenomenon of alienation and question space in the poetry of the Kuwaiti poet Muhammad Al-Fayez A sailor's diary is a model

By

Dr. Nasser Mohammed Al-Ajmi

Instructor at Kuwait University

Abstract:

The study focused on the duality of alienation and the question in the poetry of Muhammad al-Fayez and dealt with the term of alienation and the space of the question. Muhammad al-Fayez is a Kuwaiti poet who is one of the most prominent Arab poets in Kuwait and the Arab world. His collection (Memoirs of a Mariner) was one of his prominent poetry, which the research used as a model for this study. In his memoirs, he portrayed the suffering of previous generations of Kuwaitis in order to overcome the hardships of living and the difficulties of life when they spent long months on the Gulf waters and other seas, and then to return with hope.

The research dealt with the manifestations of the poet between alienation and longing, and the impact of the social variables that the poet went through in living between estrangement and alienation, as well as the connotations of meeting, farewell and loss, as the theme of loss was prominent in his memoirs. He sailed in exposing the loss of the human being and the exposing of the world around him, in which the values collapsed at the hands of human traffickers and explaining the dialectical relationship between the blessed of people and the oppressed lost ones.

Sadness was one of the most prominent poetic contents expressed by the poet, as he reflected in his poetry the emotions of the soul and the extent of what is going on in its sad sphere.

The research turned to the estranged self and the space of the question and showed that the poetic question is one of the most important factors in producing the condensed poetic text since the question represented one of the distinct stylistic phenomena in the existence of his poetic text. The poet believed in the question as a source of life in his poetic discourse, and he charged his poems with movement and energy to offer the adventure of entering to the self of the recipient through searching for answers.

The research has proven that Muhammad al-Fayez is one of the most important contemporary poets, and this study is a beginning to shed light on his poetry by showing a bright side of its aspects. The collection (Memoirs of a Mariner) represented the alienated self in the best way, as alienation was an objective equation of the complexity of life, and the poetical soul represented the collective self that conveyed people's emotions, feelings and sufferings. In Arabic poetry, at that time, the phenomenon of alienation arose among several poets, so they lived spiritual, psychological, social and economic estrangement. They expressed the civilized setback and what it produced in the Arab societies, and that was reflected in their poetry.

Keywords: Question space, alienation, turmoil.